

المنتقى من كتاب ذم الهوى لابن الجوزي

جمع

فهد بن عبدالعزيز بن عبدالله الشويخ

حقوق الطبع والنشر لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين... أما بعد: فإن الهوى ميل النفس إلى ما تحبه وتهواه، فإن كان موافقاً للشرع فهو هوى محمود، وإن كان مخالفاً له فهو هوى مذموم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣] قال العلامة السعدي رحمه الله: فما هو الهوى سلكه، سواء كان يرضى الله، أم يسخطه. والهوى المذموم ينبغي التنبه له والوقاية منه قبل الوقوع فيه، ومن ثم المبادرة بالعلاج إذا استزل الشيطان الإنسان فوقع في مرض من أمراضه، وأمراض الهوى المذموم قد تكون في الشبهات، وقد تكون في الشهوات.

وقد وقع رجل في عصر الإمام ابن الجوزي رحمه الله، في مرضٍ من أمراض هذا الهوى المذموم، فطلب النصيحة من ابن الجوزي، فصنف رحمه الله كتاباً في ذلك، سماه " ذم الهوى "

وقد جاء الكتاب في خمسين باباً، وقد يسر الله الكريم لي فانتقيتُ منه بعض الفوائد، التي أسأل أن ينفع بها، ويبارك فيها.

العقل والهوى:

اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة, ويحث على نيل الشهوات عاجلاً, وإن كنت سبباً للألم والأذى في العاجل, ومنع لذات في الآجل, فأما العقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تُعقب ألماً, وشهوة تورث نداماً, وكفى بهذا القدر مدحاً للعقل, وذمماً للهوى.

مدمن الشهوات شقي من حيث قدر السعادة, واغتم من حيث ظن الفرح:

ليعلم العاقل أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها, وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها, لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري, ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ بذلك عشر التذاذ من لم يدمن, غير أن العادة تقتضيه ذلك, فيلقى نفسه في المهالك لنيل ما يقتضيه تعوده, ولو زال رين الهوى عن بصر بصيرته, لرأى أنه قد شقى من حيث قدر السعادة, واغتم من حيث ظن الفرح, وألم من حيث أراد اللذة, فهو كالحیوان المخدوع بحبّ الفخ, لا هو نال ما خُدع به, ولا أطاق التخلص مما وقع فيه.

مجاهدة النفس في مخالفة الهوى:

فإن قال قائل: فكيف يتخلص من هذا من قد نشب فيه؟ قيل له: بالعزم القوي في هجران مايؤذي, والتدرج في ترك ما لا يؤمن أذاه, وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة... فالنفس مجبولة على حبّ الهوى, وقد سبق بيان أذاه, فافتقرت لذلك إلى المجاهدة والمخالفة, ومتى لم تُزجر عن الهوى هجم عليها الفكر في طلب ما شغفت به, فاستأنست بالأراء الفاسدة, والأطماع الكاذبة, والأمانى العجيبة, خصوصاً إن ساعد الشباب الذي هو شعبة من الجنون, وامتد ساعد القدرة إلى نيل المطلوب.

ما يصدأ به القلب:

قال يحيى بن معاذ: سقم الجسد بالأوجاع, وسقم القلوب بالذنوب, فكما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه, فكذلك القلب لا يجد حلاوة العبادة مع الذنوب.

ما ينقي عن القلوب صدأها:

قال رجل للحسن, يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي! قال: أذبه بالذكر. روى أن رجلاً سأل عائشة: ما دواء قسوة القلب؟ فأمرته بعبادة المرضى, وتشيع الجنائز, وتوقع الموت.

وسئل ابن المبارك: ما دواء قسوة القلب؟ قال: قلة الملاقاة

وشكا ذلك رجل إلى مالك بن دينار, فقال: أدمن الصيام, فإن وجدت قسوة فأطل القيام, فإن وجدت قسوة فأقل الطعام.

وقال إبراهيم الخواص: دواء القلب خمسة أشياء:

قراءة القرآن بالتدبر, وخلاء البطن, وقيام الليل,

والتضرع عند السحر, ومجالسة الصالحين.

الواعظ من القلب:

عن خالد بن معدان قال: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه, يبصر بهما أمر الدنيا, وعينان في قلبه, يبصر بهما أمر الآخرة, فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه, فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب, وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما فيه, ثم

قرأ: ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]

الأمر بغض البصر:

لما كان إطلاق البصر سبباً لوقوع الهوى في القلب, أمر الشارع بغض البصر عما يُخاف عواقبه, فإذا تعرضت بالتخليط وقد أمرت بالحمية فوَقعت إِذاً في أذى فلم تَضِحْ من أليم الألم, قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه, أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (العينان تزنيان وزناهما النظر) أخرجه البخاري ومسلم.

خرج حسان بن أبي سنان يوم العيد, فلما رجع قالت له امرأته: كم من امرأة حسنة قد نظرت اليوم؟ فلما أكثرت. قال: ويحك! ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت من عندك حتى رجعت إليك.

النهي عن النظر إلى المردان ومجالستهم:

اعلم وفقك الله, أن هذا الباب من أعظم أبواب الفتن... فإن الشيطان إنما يدخل على العبد من حيث يمكنه الدخول, إلى أن يُدرجه إلى غاية ما يمكنه من الفتن, فإنه لا يأتي إلى العابد فيحسن له الزنا في الأول, وإنما يزين له النظر, والعابد والعالم قد أغلقا على أنفسهما باب النظر إلى النساء الأجانب, لبعدهن مصاحبتهم وامتناع مخالطتهم, والصبي مخالط لهما, فليحذر من فتنته.

نظر... إلى غلام في بعض الأسواق, فبلي به... وطال به البلاء... ولما سئل عن قصته, قال: رب ذنب استصغره الإنسان هو أعظم عند الله من ثبير, وحقيق لمن تعرض للنظر الحرام أن تطول به الأسقام ثم بكى وقال: أخاف أن يطول في النار شقائي.

معالجة الهم والفكر المتولد عن النظر:

فتفهم يا أخي ما أوصيك به, إنما بصرك نعمة من الله عليك, فلا تعصيه بنعمه, وعامله بغضه عن الحرام تريح, واحذر أن تكون العقوبة سلب تلك النعمة, وكل زمن الجهاد في الغض لحظة, فإن فعلت ذلك نلت الخير الجزيل, وسلمت من الشر الطويل... واعلم وفقك الله, أنك إذا امتثلت المأمور به, من غض البصر عند أول نظرة, سلمت من آفات لا تحصى, فإذا كررت النظر لم تأمن أن تزرع في قلبك زرعاً يصعب قلعه, فإن كان قد حصل ذلك فعلاجه الحمية بالغض فيما بعد, وقطع مراد الفكر بسد باب النظر, فحينئذ يسهل علاج الحاصل في القلب, لأنه إذا اجتمع سبل فسُدَّ مجراه, سهّل نرف الحاصل, ولا علاج للحاصل في القلب أقوى من قطع أسبابه, ثم زجر الاهتمام به خوفاً من عقوبة الله عز وجل, فمتى شرعت في استعمال هذا الدواء رجي لك قرب السلامة, وإن ساكنت الهم ترقى إلى درجة العزم, ثم حرك الجوارح.

قيل لبعض الحكماء: ما سبب الذنب ؟

قال: الخطرة, فإن تداركت الخطرة بالرجوع إلى الله ذهبت, وإن لم تفعل تولدت عنها الفكرة, فإن تدراكتها بالرجوع إلى بطلت, وإلا فعند ذلك تخالط الوسوسة الفكرة, فتولد عنها الشهوة, وكل ذلك بعد باطن في القلب لم يظهر على الجوارح, فإن استدركت الشهوة, وإلا تولد منها الطلب, فإن تداركت الطلب وإلا تولد منه الفعل.

التحذير من المعاصي وقبح أثرها

يا صاحب الذنب لا تأمنن سوء عاقبته ولما يتبع الذنب من الذنب إذا علمته
ضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب
وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب
وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب, ولا يضطرب فؤادك من
نظر الله إليك, أعظم من الذنب إذا عملته.
كتبت عائشة إلى معاوية: أما بعد: فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من
الناس ذاماً.

قال المحارب بن ديثار: أن الرجل ليذنب الذنب فيجد له في قلبه وهناً.
قال بشر: إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل
قيل لوهب بن الورد: أيجد طعم العبادة من يعصي؟ قال: لا, ولا من يهيم.
اعلم وفقك الله, أن المعاصي قبيحة العواقب سيئة المنتهى, وهي وإن سرّ عاجلها
ضرراً آجلها, ولربما تعجل ضررها, فمن أراد أن طيب عيشه فليزِم التقوى
فمتى رأيت وفقك الله تكديراً في حال, فتذكر ذنباً قد وقع, قال الفيض بن عياض:
إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي.
وقال أبو سليمان الدارني: من صقى صُفَى له, ومن كدّر كُدِّر عليه, ومن أحسن في
ليله كُوفى في نهاره, ومن أحسن في نهاره كُوفى في ليله.

فتفكر وفقك الله, في أن الذنوب تنقضي لذتها وتبقى تبعثها
تفنى اللذادة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

التحذير من العقوبات

اعلم أن العقوبة تختلف, فتارة تتعجل, وتارة تتأخر, وتارة يظهر أثرها, وتارة يخفى.
وأطرف العقوبات ما لا يحس بها المعاقب, وأشدّها العقوبة بسلب الإيمان... ودون ذلك موت القلوب, ومحو لذة المناجاة منه, وقوة الحرص على الذنب, ونسيان القرآن, وإهمال الاستغفار, ونحوه مما ضرره في الدين.
وربما دبت العقوبة في الباطن ديب الظلمة, إلى أن يمتلئ أفق القلب فتعمى البصيرة وأهون العقوبة ما كان واقعاً بالبدن في الدنيا.
قال أبو علي الروذباري: من الاغترار أن تسيء فيحسن إليك, فترك الإنابة والتوبة توهماً أنك تسامح في الهفوات

الصبر على المعصية:

الطاعة مفتقرة إلى الصبر عليها, والمعصية مفتقرة إلى الصبر عليها, ولما كانت النفس مجبولة على حب الهوى.. افتقرت إلى حبسها عما تؤذى عاقبته, ولا يقدر على استعمال الصبر إلا من عرف عيب الهوى, وتلمح عقبي الصبر, فحينئذ يهون عليه ما صبر عليه وعنه.

وبيان ذلك بمثل: وهو أن امرأة مستحسنة مرت على رجلين, فلما عرضت لهما اشتها النظر إليها, فجاهد أحدهما نفسه وغض بصره, فما كانت إلا لحظة ونسى ما كان, وأوغل الآخر في النظر فعلقت بقلبه, فكان ذلك سبب فتنته, وذهاب دينه

محاسبة النفس:

قال عمر بن الخطاب: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزينوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم يوم القيامة.

وقال الحسن: أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم لله عز وجل في الدنيا، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم، فإن كان الذي هموا به لله عز وجل مضوا فيه، وإن كان عليهم أمسكوا.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبة من الشريك لشريكه.

فضل من ذكر ربه فترك ذنبه:

قال الله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] قال مجاهد: هو الذي إذا هم بمعصية الله ذكر مقام الله عليه فيها فانتهى.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلمهم الله عز وجل في ظله، يوم لا ظل إلا ظله،... ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال إلى نفسها، فقال: إني أخاف الله عز وجل) أخرجاه في الصحيحين.

وقال علية الصلاة والسلام: بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم الغار صخرة على الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بما لعله يفرجه. فقال أحدهم: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بما، فلما قعدت بين رجلها قالت: يا عبدالله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقامت عنها.

أسباب العشق:

من أسباب العشق:

سماع الغزل والغناء... وإدامة النظر
ويتأكد بكثرة اللقاء, وطول الحديث.

ضرر العشق في الدين:

العشق بين الضرر في الدين والدنيا, أما في الدين فإن العشق أولاً يشغل القلب عن الفكر فيما خلق له, من معرفة الإله والخوف منه والقرب إليه, ثم بقدر ما ينال من موافقة غرضه المحرم يكون خسران آخرته, وتعرضه لعقوبة خالقه, فكلما قُرب من هواه بَعُدَ من مولاه, ولا يكاد يقع العشق في الحلال المقذور عليه, فإن وقع, فيا سرعان زواله. قال الحكماء: كل مملوك مملول.

ضرر العشق في الدنيا:

وأما ضرر العشق في الدنيا فإنه يورث همّ الدائم, والفكر اللازم, والواسواس, والأرق, وقلة المطعم, وكثرة السهر, ثم يتسلط على الجوارح, فتنشأ الصفرة في البدن, والرعدة في الأطراف, واللجلجة في اللسان, والتحول في الجسد, فالرأي عاطل, والقلب غائب عن تدبير مصلحته, والدموع هواطل, والحسرات تتابع, والزفريات تتوالى, والأحشاء تضطرم, فإذا غشي على القلب إغشاء تاماً أخرجت إلى الجنون, وما أقربه حينئذ من التلف, هذا وكم يجني من جنابة على العرض.

أدوية العشق:

الحِمية اللازمة في زمان الصحة لا ينبغي أن تُترك, ومتى علمت أسباب مرض وجب اجتنابها, ومعلوم أن الطباع تتساوى في الميل إلى الهوى, فينبغي للحازم اجتناب أسبابه. فمتى أصابه شيء من ذلك المرض وجب عليه أن يبادر إلى الطبيب, قبل أن يصعب التلافي أو يحل التلف.

وأعراض العشق تختلف.. وإنما يعالج من هذا المرض من لم يرتقِ إلى غايته, فإنه إذا بلغ الغاية أحدث الجنون والذهول, وتلك حالة لا تقبل العلاج.

اعلم أن بداية العشق في الأغلب تكون عند النظر إلى المحاسن... والواجب على من وقع بصره على مستحسن, فوجد لذة تلك النظرة في قلبه أن يصرف بصره, فمتى تثبت تلك النظرة, أو عاود وقع في اللوم شرعاً وعقلاً.

فإن جرى تفريط بإتباع نظرة لنظرة, فإن الثانية هي التي تُخاف وتُحذر, فلا ينبغي أن تحقر هذه النظرة, فرما أورثت صباية صبّت دم الصّب.

وعلاج هذه النظرة.. بغضّ البصر.. وخوف العقوبة من الله سبحانه عاجلاً وآجلاً, والحذر من سوء عاقبتها وما تجرُّ وتجنّي.

فإن كان تكرار النظر قد نقش صورة المحبوب في القلب نقشاً متمكناً.. فعلاج هذا المرض: العزم القوي على البعد عن المحبوب, والقطع الجازم على غضّ البصر عنه, وهجران الطمع فيه, وتوطين النفس على اليأس منه.. والفكر في خوف العواقب في الدنيا, والعقوبة في الأخرى... وكرر على النفس ما سبق من ذم الهوى, وما فعل بأربابه فأضناهم وأمراضهم, وأذهب دينهم وديانهم, وجاههم بين الناس, فاستغاثوا بعد الفوت.

وتفكر في خطواتك إلى لقاء محبوبك, فاعلم... أنها مكتوبة عليك وأنت مطالب بها وتفكر في مكاملتك محبوبك, فإنك مسؤول عما تقول, مع إلهاب الكلام نار الحب. فإن قويت أسباب الهوى فحملتك على الخلوة بجيبك, فقد تعرضت بالأسد في خيسه, وبعيد سلامة مثلك, فالهرب الهرب, فلا نجاة في غيره. فإن أمسك الهوى فاجتذب نفسك من يده, بخوف من يراك حيث تقوم, واستحيي من نظره إليك, وأدر في تلذذك ذكر مرارة الموت الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هادم اللذات) وتذكر شدة النزع وتفكر في الموتى الذين حسبوا على أعمالهم ليُجازوا بها, فليس فيهم من يقدر على محو خطيئة, ولا على زيادة حسنة, فلا تعث يا مُطلق.

وصور لنفسك حين اعتراض الهوى عرضك على ربك, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه تبارك وتعالى ليس بينه وبينه ترجمان) أخرجاه في الصحيحين.

وتخايل شهادة المكان الذي تعصي فيه عليك يوم القيامة. ومثّل في نفسك عند بعض زللك, كيف يؤمر بك إلى النار, التي لا طاقة لمخلوق بها, وتصور نفاذ اللذة وبقاء النار والعذاب. عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ناركم هذه مما يوقد بنو آدم, جزء واحد من سبعين جزءاً من حرّ جنهم) قالوا: والله إن كانت لكافية, قال: (إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً) ومن المعالجات السفر, فإنه بالسفر يتحقق البعد عن الحبوب, وكل بعيد عن البدن يؤثر بعده في القلب, فليصبر على مضض الشوق في بداية السفر صبر المصاب في بداية مصيبتة, ثم إن مرّ الأيام يهون الأمر.

وكذلك كل ما يشغل القلب من المعاش والصناعة، فإنه يسلي، لأن العشق شغل
الفارغ... فإذا تشاغل بما يوجب اشتغال القلب بغير المحبوب دَرَسَ الحُبُّ، ودثر
العشقُ، وحصل التناسي.

ومن ذلك استعراض النساء للتزويج، والجواري للتسري، وليطلب الفائق فإنه يسلي.
ومن الأدوية: عيادة المرضى، وتشيع الجنائز، وزيارة القبور، والنظر إلى الموتى،
والتفكير في الموت وما بعده، فإن ذلك يطفى نيران الهوى، كما أن سماع الغناء واللهو
يقويه، فما هو كالضد يضعفه، وكذلك مواصلة مجالس الذكر، وسماع أخبار الصالحين
والمواعظ.

ومن ذلك زجر الهمة الأبية عن مواقف الذل، واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل،
فمن لم تكن له همة أبية لم يكد يتخلص من هذه البلية، فإن ذا الهمة يأنف أن يملك
رقه شيء، وما زال الهوى يذل أهل العزِّ.

ومما يُداوى به الباطن أن تفكر، فتعلم أن محبوبك ليس كما في نفسك، فاعمل فكرك
في عيوبه... فإن الآدمي محشو بالأنجاس والأقذار، وإنما يرى العاشق معشوقه في حال
الكمال، ولا يصور له الهوى عيباً، لأن الحقائق لا تنكشف إلا مع الاعتدال،
وسلطان الهوى حاكم جائر يغطي المعاييب، فيرى العاشقُ القبيح من معشوقه حسناً.
ومما يُداوى به الباطن تصوير فقد المحبوب، إما بموته أو بفراق يحدث عن غير اختيار،
أو بنوع ملل، أو بتغير حليته... ومتى صوّر الإنسان مثل هذه الأشياء وتلمح عواقبها
بفكره سهل عليه علاج ما في قلبه.

- (١٤)

متفرقات:

* قال معاوية: المروة ترك اللذة وعصيان الهوى.

* قال عمر بن عبدالعزيز لميمون بن مهران: يا ميمون لا تخلُ بامرأة لا تحلُّ لك, وإن أقرأتها القرآن.

* قال مالك بن دينار: من غلب شهوات الدنيا, فذلك الذي يفرِّقُ الشيطان من ظله... بنس العبد عبد همه هواه وبطنه.

* قال يحيى بن معاذ: من أرضى الجوارح في اللذات, فقد غرس لنفسه شجر الندامات.

* قال بشر بن الحارث: لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد.

* قال ميمون بن مهران: لا تصغين سمعك لذي هوى, فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه.

* قال بعض الحكماء: ظاهر التقوى شرف الدنيا, وباطنها شرف الآخرة.

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٤	العقل والهوى
٤	مدمن الشهوات شقي من حيث قدر السعادة, واغتم من حيث ظن الفرح
٤	مجاهدة النفس في مخالفة الهوى
٥	ما يصدأ به القلب
٥	ما ينقي عن القلوب صدأها
٥	الواعظ من القلب
٦	الأمر بغض البصر
٦	النهي عن النظر إلى المردان ومجالستهم
٧	معالجة الهم والفكر المتولد عن النظر
٨	التحذير من المعاصي وقبح أثرها
٩	التحذير من العقوبات
٩	الصبر على المعصية
١٠	محاسبة النفس
١٠	فضل من ذكر ربه فترك ذنبه
١١	أسباب العشق
-(١٦)-	
١١	ضرر العشق في الدين

١١	ضرر العشق في الدنيا
١٢	أدوية العشق
١٥	متفرقات
١٦	الفهرس